

## أحمد بن عبدالسلام الصقلي وكتابه حفظ الصحة في الطب

بقلم أ/شخوم سعدي\*

بدأ المغاربة يولون اهتماما ظاهرا بالعلوم التجريبية في الفترات التي بدأ فيها علماء الأندلس في سلسلة هجرات نحو إفريقية وتلمسان وكذا المغرب الأقصى، فقد شعر علماء الأندلس بأن بلدهم أمرها آيل إلى السقوط، وبدخولهم هذه الأمصار أصبحت هذه الأقاليم وارثة العلوم الأندلسية<sup>(1)</sup> وما يقال عن الأندلس يقال عن صقلية قبلها، وهكذا انتعش العلم التجريبي عامة والطب خاصة في القيروان وتونس، خاصة وأن صقلية كانت تعتبر امتدادا لإفريقية باعتبار القرب الجغرافي وعرفت تنقلات متبادلة بينها وبين تونس حتى قبل العهد الحفصي<sup>(2)</sup>.

لقد كان سقوط الأمصار الإسلامية كصقلية وطليلطة وقرطبة وغيرها في الشمال ذو أثر سلبي على العالم الإسلامي، لكن من جهة أخرى أدت هذه الانتكاسة إلى تطور واضح في شتى أنواع العلوم في دول المغرب الإسلامي خاصة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، وهذه العوامل هي من الأسباب الدافعة الأساسية لرصد الحركة العلمية بالمغرب الإسلامي في هذه الفترة، وإذا كانت العلوم الدينية واللسانية قد نالت حظها الأوفر فإن العلوم التجريبية كالطب والكيمياء والفلك، لا زالت تحتاج إلى مزيد من الدراسات التي يمكن أن تغطي هذا النقص الملحوظ.

\* قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر

ولعل من أبرز الأمثلة على العلماء الصقليين المهاجرين على تونس نجد أحمد بن عبد السلام الصقلي، الذي يعد من أطباء تونس الذين ظهوروا في القرن التاسع الهجري، وإن كنا لا نعرف الشيء الكثير عن هذه الشخصية، فإن كتابه حفظ الصحة نجد في بعض ثناياه صورة عامة عن خصائص علم الطب في تونس خاصة والمغرب عامة وهو هدف هذه الدراسة، بحيث يمكن معرفة الميزات العامة للطب المغربي ومناهجه وأساليبه ومدى أثره في عموم النشاط العلمي في المغرب عامة وتونس في العهد الحفصي، والإضافة التي يمكن أن نجدها في هذا المخطوط.

ومثل هذه الدراسات تبقى مجتزأة إن لم تضاف إليها دراسات أخرى في نفس الميدان، مع مقارنتها بما وصلت إليه العلوم التجريبية في العصر الحديث لمعرفة مدى الترابط في الأصول من الناحية المنهجية خاصة بالنسبة للعلوم التي لها علاقة بالطب كالصيدلة والكيمياء وعلم النبات أو الفلاحة كما كان يسميه المغاربة.

#### أحمد بن عبد السلام الصقلي وظروف نشأته:

إن نسبة أحمد بن عبد السلام إلى صقلية لا تعني بالضرورة أنه من مواليدها فقد كانت تونس في القرن التاسع الهجري تعرف نسيجا اجتماعيا متنوعا<sup>(3)</sup> فهناك العنصر التونسي البحت الذي يضم عائلات علمية مشهورة آنذاك كعائلة الرضاع، والبكري وغيرهما، وهناك العنصر الأندلسي وهناك العنصر الصقلي ومنه عائلة أحمد بن عبد السلام الذي يصفه مترجموه بالشريف وهي نسبة تعني الانتماء إلى النسب الشريف النبوي، فقد كان المغاربة يسعون إلى إظهار نسبهم إلى الأدارسة ملوك المغرب الأقصى، ويبدو من خلال مقدمة المخطوط المراد دراسته أن الصقلي كان من عائلة مقربة أو كان مقربا من الحفصيين، فقد ألف هذه الرسالة كدليل يستعين به السلطان الحفصي أبي فارس<sup>(4)</sup> الحفصي . ويمكن أن نقول أن أحمد الصقلي كان أحد أطباء أبي العباس<sup>(5)</sup> الحفصي وكذا ابنه أبي فارس، وكذا الاستنتاج أنه كان ذا مكانة مرموقة في المجتمع الحفصي في تلك الفترة.

وقد ترك الصقلي عدة مؤلفات في الطب حسب ما يذكره السخاوي<sup>(6)</sup> ولم يصل إلينا كتابه هذا في حفظ الصحة في حدود ما وصل إلينا من معلومات، وعلى علو مكانته في الطب فإن الصقلي لم يطل مترجموه كثيرا في الحديث عنه، بل لا نعرف - في حدود ما وقع بين أيدينا من مصادر - سنة وفاته إلا كلام السخاوي بأنه توفي في حدود سنة 820 هـ أو بعدها بقليل<sup>(7)</sup>، والحقيقة أنه أشار على أحد مؤلفاته على كتاب سماه: " الكفّين في أمراض العين " وأشار إلى أنه أكثر توسعا من رسالته في حفظ الصحة<sup>(8)</sup>.

### علم الطب في عصر أحمد الصقلي:

على غرار أحمد بن عبد السلام عرفت تونس في القرن التاسع علكمًا آخر في الطب هو أبو عبد الله محمد الدهان، وزيادة على تمكنه في الطب كان متمكنا في علم الفلك وقد توفي الدهان سنة 853 هـ / 1448 م<sup>(9)</sup>، ممن كان لهم تمكن في الطب في تونس في هذه الفترة أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي السبطي الشهير بالقلصادي الذي ولد بمدينة سبطة الأندلسية سنة 815 هـ وتوفي بباجة بتونس سنة 890 هـ<sup>(10)</sup>. وكان تلميذا للدهان وقرأ عليه أرجوزة ابن سينا وكتاب المنصوري للرازي<sup>(11)</sup>. وكانت تونس تعرف عددا لا بأس به من الأطباء المهاجرين الأندلسيين بعد أن اضطهدوا أثناء سقوط الأندلس ولم يحسن بعض المغاربة استقبالهم بعد أن فتك بهم بعض الأعراب فانتقلوا إلى تونس وطوروا بها بعض العلوم والصناعات والعلاجات<sup>(12)</sup> لبعض الأمراض التي كانت موجود بها مثل القرع وصداع الرأس وأمراض الإنسان والإسهال، والجرب، وقد أدخل يهود الأندلس مرض الزهري إلى هذه المناطق<sup>(13)</sup> ويمكن أن نقول هنا أن الطب تطور بفضل هجرات الصقليين وكذا الأندلسيين، بالإضافة إلى دور بعض التونسيين أصلا مثل محمد الدهان أحد أعلام الأطباء التونسيين في القرن التاسع.

كتاب حفظ الصحة لأحمد بن عبد السلام الصقلي أغراضه ومواضيعه:

كتاب حفظ الصحة مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ضمن مجموع تحت رقم 1759 صغير الحجم يتبدأ ب: " بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، يقول العبد الفقير إلى رحمة الله أحمد بن عبد السلام الحسني الصقلي الدار التونسي القرار رحمه الله وجميع المسلمين، آمين يارب العالمين " (14) .

والمخطوط مكتوب بخط مغربي بيد الناسخ حسن بن أحمد سنة 1254هـ وهو من إحدى عشرة ورقة، وقد ألفه للسلطان أبي فارس الحفصي من أجل حفظ صحته وما يستحسن أن يأكل ويشرب (15)، والحقيقة أن الصقلي لم يشذ في هذا الغرض فكثير من المغاربة كانوا يؤلفون للسلطان كما فعل ابن رشد في شرحه لأرجوزة ابن سينا التي ألفها بطلب من أبي الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن (16)، وابن الجزار الذي ألف كتابه الأدوية المفردة للسلطان القائم بأمر الله الفاطمي (17) وهو أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي (322-334هـ/934-946م).

والملاحظ أن الصقلي لم يذكر اسم كتابه، وهذا الاسم نسبة إليه من جاء بعده مثل حاجي خليفة وغيره (18) والظاهر أن الرسالة التي جاءت بحجم صغير هي موجهة رأسا إلى الأمير أبي فارس عبد الرحمن المتوكل لذا لم يضع لها الصقلي في مقدمته عنوانا على غرار بعض المغاربة في كتبهم. يتكون الكتاب من ثمانين بابا بحيث أنه يتحدث عن كل عضو على حدة وما يصيبه من مرض معطيا لكل مرض يصيب عضوا من الأعضاء ثلاثة أدوية (19).

ويبدو أن الصقلي استقصى في الحديث عن الأمراض، مثل مرض يصيب العين بحيث يرى صاحبها بالليل ولا ينظر بالنهار (20)، بالإضافة إلى الاستقصاء في البحث، فإن الصقلي يعطي أدوية فريدة وهذا يدل على دقة ملاحظته مثل نصيحته بدوام النظر إلى الأشياء ذات اللون الأخضر، والألوان السوداء، خصوصا السحج (الشيح) لأنها ذات خصائص لتقوية النظر (21).

ومن الطرق المنهجية التي يشير عليها الصقلي في رسالته هي المتابعة في أخذ الدواء فقد أشار لدواء لعلاج الطحال وألزم أخذه مدة سبعة أيام لاستكمال العلاج (22) وهنا إشارة مهمة هي أن

الأطباء المغاربة كانوا قد ولجوا باب ما يسمى بالطب الداخلي عند حديثه عن أمراض المعدة والكبد والطحال.

ومن خصائص كتاب الصقلي هو استعمال الكيمياء في تحضير الأدوية المركبة، عند إشارته على التحميص عند تحميص البلوط من أجل العلاج باتباع تجربة علمية دقيقة<sup>(23)</sup>.

ومن الإشارات المهمة التي نجدها في ثنايا هذا المخطوط هو المكايل التي كانت تستعمل في العهد الحفصي مثل الأوقية<sup>(24)</sup> وتقدر الأوقية بـ 28 غراما وربع الغرام<sup>(25)</sup> وكذا الرطل المغربي المقدر بـ 508 غ<sup>(26)</sup>.

وهكذا فإن رسالة الصقلي في حفظ الصحة -على صغر حجمها- قد أعطتنا ميزات هامة للطبيب والطب المغربي، فهو يستقصي في البحث ويتبع المنهج التجريبي، وهو متابع لعلاجه مرضاه بالإضافة إلى كونه دقيق الملاحظة، ومن جهة يمكن أن تساعد مثل هذه المخطوطات في دراسة الجانب الاقتصادي عبر الإشارة إلى بعض النباتات المستعملة كالأدوية وكذا الموازين المغربية المستعملة في العهد الحفصي .

وأخيرا فرغم كون العهد الحفصي عصر تراجع في المغرب الإسلامي في القرن التاسع مقارنة بالفترات السابقة<sup>(27)</sup>، فإنه قد عرف حركة علمية ليس من السهل تجاوزها بفضل العلماء المهاجرين من صقلية أو الأندلس، وكذا دور بعض العلماء التونسيين، وقد برز هذا عبر تطور العلوم التجريبية ومنها الطب، ويعد كتاب حفظ الصحة لأحمد بن عبد السلام الحسني الصقلي أحد ملامح التطور الذي بلغه الطب المغربي في العهد الحفصي.

الهوامش:

- 1- محمد أبو الأحنان، مقدمة تحقيق رحلة القلصادي، الشركة التونسية للتوزيع 1974، ص: 26.
- 2- احسان عباس، العرب في صقلية، دار المعارف، مصر، 1959 ن ص: 66.
- 3- محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، 1970، ج1، ق1، ص: 48.
- 4- هو أبو فارس عبد الرحمن بن أحمد المتوكل الحفصي (796-837هـ/1394-1434م).
- 5- أبو العباس أحمد بن محمد المستنصر (772-796هـ/1371-1394م).
- 6- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. منشورات دار مكتبة الحياة، بدون سنة، بيروت لبنان، مج1، ص: 347.
- 7- نفسه.
- 8- أحمد بن عبد السلام الصقلي، حفظ الصحة، ورقة 11 وجه، ويوجد تأليف آخر له هو : مختصر منظومة الفارسي (ت 726 هـ / 1326م) ضمن خزانة مجموعة الموهوب الحبيب بالجنوب الشرقي لمنطقة القبائل لاجزائر مكون من 14 ورقة وأبعاده 12x16 ms8 وتبدأ ب: ومما نقب من منظومة الفارسي في الطب و ما ينفع في جامع الأمراض.. ، وقد كتب في القرن العاشر الهجري) السادس عشر الميلادي):

Djamal Aissani et Djamel eddin Mechehed, les manuscrits de botanique et de médecine kabylie aux XIX<sup>e</sup> siècle, périodique : Annali, Istituto unerversitario orientale , volume 59, fascicolo : 1-4, napoli, 1999, p-p : 77-92, p : 83

- 9- أبو الحسن علي القلصادي، تمهيد الطالب. منتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب (رحلة القلصادي)، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، ط2 1978، ص: 117.
- 10- أبو الأجفان، مقدمة تحقيق رحلة القلصادي، ص-ص: 30-31.
- 11- القلصادي، الرحلة، ص: 117.
- 12- الوزير السراج، المصدر السابق، ص: 57.
- 13- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف افريقية، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983، ج1، ص-ص: 83-85.
- 14- أحمد بن عبد السلام الصقلي، كتاب حفظ الصحة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ضمن مجموع تحت رقم 1 ظهر.
- 15- نفسه.
- 16- ابن رشد، شرح أرجوزة ابن سينا، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1753، 142 ورقة1 وجه.
- 17- ابن الجزار، الاعتماد في الأدوية المفردة، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1746 ن ورقة 114 وجه.
- 18- مصطفى بن عبد الله الرومي الحنفي (حاجي خليفة)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، (1413هـ/1992)، بيروت، مج 2، ص: 1412.
- 19- الصقلي، حفظ الصحة، ورقة 3 ظهر.
- 20- نفسه، ورقة 5 وجه.
- 21- نفسه.
- 22- نفسه، ورقة 9 وجه.
- 23- نفسه، ورقة 10 وجه.

24- نفسه.

25- محمد الحجي ومحمد الأخضر، تحقيق وصف إفريقية للحسن الوزان، ج 1، ص: 115 هامش  
18.

26- نفسه، ج1، ص: 24.

27- أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيق كتاب: أحمد أبو عصيدة البجائي، رسالة الغريب إلى  
الحبيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ص: 21.